الثقافة واللغة العربيَّة في عصر العولمة

أ. د. أحمد شفيق الخطيب – لبنان

الواقع أنه يتعَذَّر البحثُ في أيٍّ من هذه العناوين الثلاثة دونَ التطرّقِ بشيءٍ من التفصيل الى موضوعِ العُنوانين الآخرين وأبدأ باللغة.

أبو الحَسن عليٌّ بن سِيده يُعَرِّفُ اللغةَ في مُخَصَّصِه المشهور بأنها «أصواتٌ يُعَبِّر بها كُلُّ قَومٍ عن أغراضهم». لكنَّها بمفهومها العامِّ أوسَعُ مَدلولاً من ذلك. فهي وسيلةُ الإنسانِ ليسَ فقطْ للتعبير عن حاجاتِه ورَغباته، بل هي وسيلتُه لِلتفاهُم والتواصُل والتعبير عن أفكاره وأحاسيسه، ومَواقفِه وإرضاءِ الغَريزة الإجتماعيّة لدَيه. وهي أيضاً وَسيلتُه إلى تنْميةِ أفكاره وتجاربه، وإلى تهيئتِه لِلعطاءِ والإبداع والمُشاركة في تحقيق حياةٍ مُتحَضِّرة.

اللغةُ، بمُختلِف مظاهرِها، تَجسيدٌ لِكُلِّ مَعارف الإنسان وخِبْرَتِه، والكاشِفُ عن مَكْنون نفسِه وعَقلِه، ودليلُ شخصيَّتِه وهُويَّته الثقافيّة. فأنتَ تستطيعُ الحُكمَ على ثقافةِ الشخصِ من مَحصولِه اللغوي وعباراته. فالكلامُ ليسَ صَوتاً يصدُر من حَناجِرَ، بل فِكرٌ يَستمِدٌّ مادّتَه من مَخزون النفسِ والقَلْبِ والعَقل.

ولعَلّه ليسَ صِدْفةً أن تحمِلَ الكلمةُ اليونانيةُ المَعنَيْين الكَلِمَةَ والعَقْل أي اللغةَ والفِكر مِصْداقاً لِمَقْولةِ «اللغةُ ليسَتْ فقط وعاءَ الفِكر بل هي الفِكرُ بذاته».

يميل البعضُ إلى مُناقشَة إشكاليّةٍ فَحْواها أتتحدَّدُ ثقافةُ الفرد بلُغَتِه، أم تتحدَّدُ لُغَتُه بِثقافته؟

وواقعُ الحالِ هو أنَّهما مُترَابطتان تَرابُطَ الجُزْء بالكُلّ.

فاللغةُ هي بعضٌ من الثقافة، وأحياناً هي واجهَةُ الثقافة. فالإنسانُ لن يتسنَّى له أن يُفكِّر في قِيَم أو مَفاهيمَ أو تُراثٍ أو أن يُكَوِّنَ صُوراً ذِهْنيّةً دَقيقةً عن عَقيدةٍ أو حَضارةٍ أو ثقافةٍ وهو يفتَقدُ لُغَتَها. ولعَلَّ هذا ما عناهُ أرسْطو في مَقولته المشهورة «ليسَ ثمّةَ تفكيرٌ بدون صُوَرٍ ذِهْنيَّة».

اللغةُ القومية، بِحُكْم مَنْطِقِها وبِناها وتعابيرها وتُراثِها، هي أساسُ الرّوابطِ الفِكريةِ والاجتماعية والحضارية لِلأُمَّة فهي في واقعها أبرزُ مَظاهِر الثقافة؛ واللغةُ العربيةُ هي أبرزُ مَظاهر الثقافَة العربية وأكثَرُها تعبيراً بوَصْفِها وعاءَ الوِجدان القومي. فالمناطِقُ الثقافيةُ في الوَطن العربي، كبيرةً كانت أو صغيرةً، مَشرقيةً أم مَغربيّة، رِباطُها القوميُّ والاجتماعيُّ والرُّوحي هو الوَحدةُ اللغوية في الدرجةِ الأولى.

وجديرٌ بالذِّكر أن التُّراثَ العربيَّ كان له شأنُه في تاريخ الثقافةِ الإنسانيَّة فهو ثَمرةُ حَضاراتٍ وثقافاتٍ سادت العالَمَ على مدَى عِدّةِ قُرون كانتِ العربيَّةُ فيها لُغَةَ العِلم والعُلماءِ لا تُنازِعُها تلك المَكانةَ أيُّ لُغةٍ أُخرى. لقد استطاعَت العربيَّةُ استيعابَ جَميع العُلوم التي سبقَتْها وأضافَت إليها عُلوماً ومعارفَ جديدةً بمفاهيمَ ومُصطلحاتٍ جديدة. وفيها كانَتْ تُؤَلَّفُ الكُتبُ، وبها يتحدَّثُ العُلماءُ في ما بينهُم مَهما اختلفتْ أصولُهم. وعنها أخذَتْ شتَّى اللغاتِ مِئاتِ المُصطلحات في الفَلك والكيمياء والطِّب والجُغرافيا والرياضيَّات؛ وتُرجِمَتْ مؤلَّفاتُها في هذه المواد إلى اللغة اللاتينيَّة وظلّتْ تُدَرَّسُ في جامعات أوروبا العريقة في مونْبيلييه وتوبِنْجن طوالَ عِدّةِ قرون. فقد ظلت مؤلّفات الرازي وابن سينا وجابِر وابن الهيثم المُلتْنَنَةُ مراجعَ أساسيّةً حتى عصرِ النهضة الأوروبية.

أواخرَ العَصر العبَّاسي بدأ الوطَنُ العربي يتعرّضُ لِغَزَواتٍ مُتَّتاليةٍ أبرزُها من السّلجوقِيين الأتراك والمُغول، ثمَّ حوالى مُنتصف القرن السَّادسَ عشَر خضعتْ مُعظَم الأراضي العربيةِ لِسُلطة العُثْمانيين؛ ورانَ على المنطقة، بفعل سياسة التَّجْهيلِ العُثمانية، سُباتٌ استمَرَّ عِدّةَ قُرون بدأنا نُفيقُ منه إثْرَ الحربِ العالمية الأولى وتفكُّك الإمبراطورية العثمانية.

لكنّ خَلاصَنا من النِّير العُثماني أوقَعنا، مَشْرِقاً ومَغرِباً، في حبائلِ استِعمارٍ سياسيّ انتدابي غاشِم ما زِلْنا نُعاني من آثارِه قَوميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا وثقافيًّا، فقد تعرَّضتِ اللغةُ العربيَّةُ، كما الوَطنُ العربيُّ، لِسياساتِ التفرِقَة والتقاسُمِ والهَدْم. وارتأى المُستعمِرون أنّ هَدْمَ وَحدةِ العَرب يَقتضي هدمَ اللغةِ العربيةِ لُغَةِ العقيدةِ والتراث القومي والثقافة المشتركة.

إنَّ تَواجُدَ لُغةٍ فُصْحى للفكر والأدب والعِلم مع لَهَجاتٍ مَحلِّيَّةٍ عامِّيَّةٍ للتعامُل اليومي، هو ظاهِرةٌ طبيعيَّة عَرَفتْها العربيَّةُ مُنْذُ قَديمِها الجاهِلي في عَنْعَنة تميم وعَجْعَجة قُضاعة وطُمطمانيةِ حِمْيَر وفَخْفَخة هَذيل وفشْفَشة تَغْلِب واستنْطاء أهلِ اليمن كما تَعرِفُها سائرُ اللغاتِ الحيَّة.

وقد استغَلَّ الاستعمارُ هذه الظاهِرةَ لمُحاربة الفُصحى، فانطلقَتْ حَملاتُ الاستعمار تتَّهِمُ الفُصْحَى بالجُمود وبأنَّها مسؤولةٌ عن التخلُّفِ السّائدِ وَعنْ انعِدامِ قُوّةِ الاختراع؛ وأنْ لا أَملَ في إحياءِ قوةِ الإختراع هذه الا بإتخاذ العامِّيّةِ بَدلاً منها.

وتعزيزاً لهذه الدعوةِ التي أسْهَم في نشرِها مَندوبونَ ساميُّون ومُوظّفون في قِمَّةِ المَناصب الإدارية، من أمثال پاوْل و؟ولْرس وويلْمور وويلكوكْس وسپيتا، داوَمَ هؤلاء وأمثالُهم على المُحاضرة والكتابةِ باللغة العامِّية حتى إن أحدَهم، ولْهِلم سپيتا، وكان مُديراً لدار الكتب المصرية، ألَّفَ كتاباً في قواعد اللغة العاميَّة، فيما ترجمَ آخَرُ بَعْضاً من أعمال شِكْسپير بها.

ولم يكُن الاستعمارُ في شمالِ إفريقيا أقَلَّ ضَراوةً ليسَ ضِدَّ العربية الفُصحى فقط، بل ضِدَّ اللُغةِ العربيَّة عُموماً فألْغَى تدريسَها من برامج التعليم الرسمي.

لكنْ حَمْداً لله ولجُهودِ المُخلصين، ظلَّت اللغةُ العربية، رُغْمَ كُلِّ ذلك، اللغةَ المَفهومةَ فَهْماً تامًّا، والمُستَخْدَمةَ إجمالاً في سائر انحاءِ الوَطن العربي. فالمُسْتَمِعُ العربيُّ، حيثما كان، يَسْتَطيعُ عَبْرَ قُدْرته السّليقيةِ الفِطْريَّة، أن يفهَمَ ما يَسْمَعُه من جُمَلٍ بالفُصحى وإنْ كانَ هو نفسُه عاجِزاً عن إجادةِ التحدُّث بها.

لقد صمَدَت العربيَّةُ الفُصْحى أكثَر من أربعَةَ عشَرَ قَرْناً، ولا تزالُ لُغَةً تُجاري، وتحاوِلُ جدِّيًّا أن تُجاري، التقدُّمَ العِلْميَّ والأدَبيَّ والثقافيَّ كَوْنَها لُغَةَ الدِّينِ والتُّراث وأداةَ الخَطابَةِ والعِبادةِ والقضاءِ والأدبيات، نَثْراً وشِعْراً، كما لُغَةَ الإِعلام، مَسموعاً ومَرْئيًّا؛ وهذا يُعتبَرُ مُعجزَةً في عالَم اللغات.

وطُموحُنا ألاّ يَطولَ الوَقتُ الذي تُصْبح فيه العربيةُ الفُصحى لُغَةَ العِلم والثقافةِ لا في الأوساطِ العِلميةِ والأدَبيّة فقط، بل في شتَّى مَظاهر الحياة الإِنسانيّة والفِكريّة والإِجتماعية، لُغَةً تُسْهِمُ في الثقافة العالمية وفي النَّهضَة العلمية العالَميّة وتقَدُّمِ المعرِفة الإِنسانيَّةِ بشَكلٍ عامّ.

في سياق الثقافة.

تقول المعاجم: ثقِفَ يَثْقَف، وثقُف يثقُف: صار حاذقاً

والثّقْف والثقافة: الحِذقُ في إدراك الشيءِ عِلماً أو عملاً؛ وثقَّف الرُّمْحَ قوَّمه وسَوّاه ويُستعار للتأديب والتهذيب.

ولَفْظُ الثقافَة تَنامَى، كما اللُّغةُ، ضِمْنَ السِّياقِ نَفْسِه تقريباً، ليشْمَلَ مَفهوماً أوسَعَ تبنَّاه المُؤتمرُ الدَّولي للسياسات الثقافيّة في ما أسماه.

إعلان مَكْسيكو بشأن الثقافة بالنص التالي:

«الثقافةُ، بمعناها الأوسَع، هي مَجموعُ السِّمات الرُّوحيَّةِ والمادِّيَّةِ والفِكْرية والعاطفيَّة الخاصَّة التي تُميِّزُ مُجتمعاً بعَيْنِه، أو فِئةً إجتماعيّةً بِذاتها. يَعْني هي كُلٌّ مُتَكامِلٌ مُعقَّد whole Complex يشمَلُ اللغةَ والمَعارفَ والأفكارَ والعاداتِ والتقاليدَ والمُعتقداتِ والقوانينَ المَرْعيَّة والمؤسساتِ والأدواتِ والثَّقافاتِ والآدابَ والفُنونَ والسُّلوكَ العامَّ وسائرَ الأشياءِ التي هي جُزءٌ من هذا السُّلوك.

بعضُ أنماط الثقافةِ في هذا المَفهوم، كما تَلْحظون، أساسيٌّ ومُسْتَقِرٌ يَعودُ إلى آلاف السِّنين، ويتعلَّقُ بِوَظائفَ أساسيّةٍ نَموذَجيَّةٍ لجميع فئاتِ البَشر. وبعضُها ثانَويٌّ طارىءٌ أقَلُّ استِقْراراً وأكثَرُ

قابليَّةً للتبديل والتغيُّر. لكنْ مهما تباينَتْ عَناصرُ هذه الأنماط، فإنّها تظَلُّ إجمالاً مُترَابطةً، بحَيْث إنّ أيَّ تَغْيير في عُنْصرٍ منها يَقْتضي بالضرورة تغييراتٍ في العَناصر الأخرى.

الطِّفلُ في النّوع البَشري Homo sapien يأتي إلى هذا العالَم بلا ثَقافة. وهو، بالمُقارنَة مع أنواع الأحياءِ اللاّبشَريّةِ الأُخرى، أقَلُّ امتلاكاً للغرائز. لذا فلا بُدَّ لهُ مِن تعَلُّم الكثير من العادات والمُنْعَكسات وأنماطِ الحِماية لِلعيشِ ليسَ فقط في مُجتمع، بل لِلْعَيش في مُجتمَعٍ مُعَيَّن.

فهُو يَكْتسِبُ ثقافتَهَ من حيث نَظْرتُه إلى الأمور، ومَوقفُه من الأحداث، وما يتحَلّى به من القِيم والأخلاقيات والمُثُل والمُعتقدات إضافةً إلى سُلوكه العامّ وأنشطَته الحياتيّة المُخْتَلفة كُلُّ ذلكَ يكتَسبُه من مَفاهيم الثقافةِ التي يَنْشَأُ في أجوائها وتُحيطُ به من كُلِّ جانب.

ولَنْ تكونَ مُبالِغاً أبداً في تَشْديدك على قُوَّةِ الثقافةِ في تَشْكيلِ الشخصيَّةِ الإنسانيَّة. فهي من القُوَّةِ بحَيْث تتحكَّمُ في الدوافعِ الجنْسيَّة وتحقيقِ العِفَّة قَبل الزّواج أو حتى العُزوبَةِ الرَّهبانيَّةِ مدَى الحياة. وقد يُشْرِفُ الشخصُ، بدافعِ الثقافةِ على المَوت، ولا يتَناوَلُ طعاماً مُحَرَّماً، أو قد يَنْتَحِرُ بالرصاص أو هاراكيريًّا لِمَسح عارٍ يَمَسُّ شَرَفَه.

وقد تكونُ بعضُ مَناحي الثقافةِ قابِلَةً أو غَيْرَ قابلَةٍ للمُقايسة. فبعضُ الثقافات قد تتوافَرُ فيها وسائلُ أفضلُ مَعيشيًّا أو صِحِّيًّا أو إنتاجيًّا مِمّا يُبَرِّرُ أحياناً توضيعَ الثقافاتِ في درَجاتٍ مُتفاوِتة. لكنَّ هذا لا يُمكِنُ أن يَعْنيَ أنّ الإنسانَ في البيئةِ المُصنَّعةِ أو المُمَكْنَنَةِ أسعَدُ وأهْنَأُ مِنهُ في البيئةِ الزِّراعيةِ أو بيئةِ الاعتماد على الجُهْدِ الإنساني.

في لِقاءِ الثقافاتِ تَبْرزُ قوةُ الشخصيةِ الثقافيةِ للأُمّة على الأخذِ والعَطاء دون امِّحاءٍ أو تبَعِيَّةٍ، ودون تَعالٍ أو انغِلاق. وهذا بَدَهي في مِضمار التواصُلِ الإنسانيّ على صَعيدِ الأفراد كما على صعيدِ الجماعات البشرية.

ويُفترَضُ في الناسِ عندما تَطْرأُ أوضاعٌ ثَقافيَّةٌ جديدةٌ ألاّ يَقْبلوها إلا بعد أن يَتبيّن لهُمْ أن هذا الجديدَ هو حَقٌّ وصِدْق يتجاوَبُ مع القِيم والتُّراثِ والأخلاقيّات المُتعارَفة.

الثقافَةُ الحَقَّةُ لا تُعارضُ التأثيراتِ الأجنبيَّةَ ولا تَخْشاها، بل تُقَوّي نَفْسَها بتَمثُّلِ خيرِ ما فيها وتبَنِّيه. وهذا يُذكِّرُنا بإنجازاتِ السَّلَفِ المُتَميِّزة التي، خلالَ مئة عام بَدْءاً من القرن السابعِ الميلادي، حوّلتِ العربيَّةَ من لُغَةٍ قبَليّةٍ وثقافةٍ قبَليةٍ إلى لُغَةٍ وثقافَةٍ عالميَّة حمَلَتْ مِشْعلَ الثقافةِ في العالَم على مَدى 750 عاماً. ولم تَكُنْ تلك الثقافةُ عَربيَّةً فقَطْ، ولا حتى إسلاميّةً فقط، فقد

كان الكثيرُ من المَسيحيِّين واليهودِ والصابئة، كما الفُرسُ والهنودُ والسِّريانُ والقوطُ والبربَرُ من حَمَلةِ مَشاعِلها؛ ومعارِفُهُم وثقافاتُهم من أغزَرِ مناهِلها.

ونذكُر أنّ هارون الرشيد، بعد احتِلاله عَمُّورية وأنقَرة طلَب من الحُكّام فيهما تَسليمَهُ المَخطوطاتِ العِلمية والمَعارفيّة من مَكتباتِهم. ومثْلُه فعَلَ المأمونُ بعد انتصاره على ميخائيل الثالث قَيصر بيزَنْطية فقد طلَبَ منه تسليمَ أعمال القُدَماء التي لم تكُنْ قد تُرجمتْ إلى العربية، واعتبارَ ذلك بَديلاً عن تعويضات الحَرْب. وكثيراً ما كانَتْ تُرْسَلُ البَعَثاتُ الخاصّةُ من بَغدادَ إلى مُختلِف الأمصار بَحْثاً عن كُنوز العِلْم مُقابِلَ أكياسِ نُقودٍ يتقاضَوْنَها. وكان المُتَعلِّمون في تلك البُلدان يَقومون بدَورِ السّماسرة.

الثقافةُ الحقَّةُ أَقوى من القُوّةِ العَسْكريَّة وهي، بخلاف مَقولةِ العلاَّمة ابن خَلدون، قد تكون في المَغلوب أقوى منها في الغالِب. فلما احتلَّت جيوشُ الرومان أثينا، صمدَت الثقافَةُ اليونانيّةُ أمامَ ثقافة الغُزاةِ فاحتلَّت بتفَوُّقِها وزَهائِها المُتَميِّزِ عُقولَ الرُّومانِ حَتّى قِيلَ في ذلك تاريخيًّا: المَغلوب غلَب الغالِب ! The conquered conquered the conquerer

للأسَفِ، الغَزْوُ الثقافي الغَربيُّ الإستعماري الذي داهَمَ مُجتَمعاتِنا انعكَسَ بأشكالٍ شَتّى من التقليد والتّبعيّة والانهيار والاقتداء، مُعَزّزاً بالنّموذَج الأمريكي مُؤَخّراً فأدّى إلى أن نُصْبحَ مُجتمعاتٍ مُسَخَّرةً في خِدْمة الأجنبيِّ مَبْهورينَ بما يَلْبَسُ ويَسْلُكُ ويَستخدِمُ، غافلين عن أساليبه ووَسائله ومَناهجه في سَلْب ثَرَواتنا وتسخير طاقاتِنا لِصالحه، وتحويلنا إلى أفواهٍ وسَواعدَ مُسْتَباحَةِ الإرادةِ مُهيأةٍ لِتكونَ في خِدمةِ مَشاريعِه الاستعماريّة الاستِثمارية، في جَوٍّ من الوَهْمِ وَهْمِ الحريَّةِ المُزَيَّفة والقَناعات المُشَوَّهَة قبائليًّا وَطائفيًّا وإقليميًّا وقُطْريًّا بسياساتٍ أنَويَّة تفَرُّديّة غدا وَطنُنا العَربيُّ، على بَرَكَتِها، اثْنَتَيْن وعِشرينَ دَولةً؛ ونَخْشَى أن يكونَ الحبْلُ على الجَرَّار.

ولو كُنّا، أفراداً ومُجتمعاتٍ، مُسَلَّحين بثَقافتِنا وتُراثنا وقِيَمِنا وقُوانا وأصالَتِنا الحَقَّة، لما كانَتْ حالُ التواكُلِ والتآكُلِ هذِه حالَنا!

العَولمة واللغة والثقافة

لعل جذورَ العولمة تعود بنا الى فترة الغزو الغربي الاستعماري منذ القرن التاسِعَ عشَر، ولا يزالُ مُستمِرًّا، طَوعاً أو كَرهاً، وبأساليبَ مُختلفةٍ تطوّرت حسب الأوضاع والظروف وعلى شتّى المجالات عَسكريًّا وسِياسيًّا واستغلاليًّا واستعباديًّا وحَضاريًّا واقتِصادِيًّا، ظاهِراً وباطناً، بحُجَّةِ نشرِ مفاهيمَ ووسائلَ تؤدِّي زَعْماً إلى التّقدُّم والإزدهارِ والتحرُّر.

وفي الواقع، لم تكُنْ تِلكَ النَّزعةُ من القُوى العُظمى الأوروبيّةِ بخاصةٍ بعد الحربِ العالميّة الأولى وانفِراط الإمبراطوريّة العُثمانية إلا وَسيلةً للسَّيطرة الاستعمارية الاستثمارية الاستلابية على العالم العَربيِّ اقْتِساماً بريطانيًا فرَنسيًا شَرْقاً وفرَنْسيًا إيطاليًا إسبانيًا غَرباً.

واللافتُ أن مُختَلفَ القُوى الإستعمارية، التي هَبَّتْ إلى لَفِّنا في عَوالِمها، ابتدأتْ بالحَرْب على اللغة العربيَّة إنْ كان بتشجيع العاميَّة وإحلالِ الإنكليزية مَكان العربيّة في مُختلِف مَعاهد التعليم الثانوي والعالي في مِصْر، أو بمُحاولة طمْس اللغة العربية ومَحْو مَعالِمها وفرْضِ البدائل بَدْءاً باللغة الفرنسية وانتهاءً بإحلال اللَّهجات المحَليّة، كالأمازيرية البَربرية محلَّ العربيةِ الفصحى، في الجزائر في حين يُقاومون هُمْ بضَراوة تعليمَ لُغاتِ الأقلِّيات في مُقاطعاتِهم كلُغةِ كورسيكا ولُغاتِ الباسْك وكاتَلان وغيرها.

ثُمَّ أَلَمْ تَسْمَعوا أخيراً بإنجازاتِ الدِّيمقراطيّة الأميركية الزائفة بإقرارِ تعليم اللُّغتَين الكُرديةِ والسِّريانية في مدارس العراق الرَّسميَّة منذ العام 2002؟

كذلك، أَلَيْسَ من قَبيل الرِّدّة، ما يُحاكُ من مُناوراتٍ بين الفَيْنة والفَيْنَة في كَواليس الأمم المتحدة والمُنظَّمات المختلفة التابِعَة لها، كاليونسكو، بهدَف إقصاء اللغة العربيَّة عن جُملة اللغاتِ الرّسميّة المُعتمدة دَوليًا بحُجَّةِ افتِقادِ المُترجمين المهَرَة؟

التحدِّي اللُّغَوي الثقافي الحضاري الذي يَجبُ أن يضْطَلعَ به أهلُ الفُصْحى، حتى لا تبقّى العربيَّةُ عُرْضَةً لِلتّهميش والإقصاء عن المجالات الثقافية والاجتماعية والتِّقْنِيَّة في قَرْية العَولمة التي أضحاها عالَمُنا اليومَ، هو مُجابَهةُ جُيوش العَولمة والأمْركة بما واجَهَت به الحضارَةُ العَبَّاسيَّةُ ثَقافة وحضاراتِ الأُمَمِ الأُخرى وَصَهَرَتْهُ في كِيانِها. التحدِّي هو إعادَةُ مَسْرَحَةِ تلكَ التجربةِ العربيّة الحَضارية الرائدة.

تُرى ما الذي يَمْنَع العَربيَّ اليومَ من أن يَسْتَعيد تَواصُلاً واعِياً مع تُراثِه الثقافي ومع مُعْطيات واقِعه وثقافة عَصره، لِيواكبَ التقدُّمَ بأصالةٍ، ولِيَكوِّنَ ذاتَه بعُمق ويُكرِّس خُصوصِيَّتَه في ثقافَةٍ تكُونُ رِفداً وإغناءً لِلثقافةِ الإنسانيّة سَيْراً في طريقِ النهضة والتحرُّر والتقدُّم؟

التطوُّرُ المُذْهِلُ الذي نَشْهَدُه في البُلدانِ المُتقَدِّمة مَرَدُّه إلى الإرتقاءِ المُذْهِل في العُلوم والثقافةِ العلميَّةِ، وتَطْبيقاتِها في الصِّناعة والزراعةِ والصِّحة والتواصُل، والبحوثِ المُعَمّقة في تطويرها.

العِلمُ هو الحَلّ. إنّ أجيالَ العلماء المُعاصرين يُدرِكونُ أنه لا يُمكِنُ للشعوب العربية العيشُ الكريم وتحقيقُ الحريةِ والكرَامة والتقدُّم، إلا بالعلِم، وبالثقافة العلمية، وبسُلوك طريق العلم ومَزج العلم بالحياة.

العلمُ هو الحَلّ من يُؤمِنُ بالعلم – يُقاومُ الاستعمارَ بالعِلم،

يُقاومُ الفَسادَ بالعلم،

يقاوم الرَّجعيَّةَ بالعلم،

يَقْوَى بالعِلم، وبالبحوث العلميَّة،

يتجاوَزُ مُستويات الجهل والفقر والمرض والخوف بالعلم وبأساليب العِلم، وبتَطبيقات العلم، وبثقافة العلم، وبعَولَمةِ أجيال العرب الجديدة بالعلم تِقْنيًّا وصناعيًّا وزراعيًّا وَطِبِّيًّا وفِيزْيائيًّا وكيميائيًّا والكترونيًّا ونيُوتْرونيا وأبحاثيًّا واجتماعيًّا وسُلوكيًّا، وأخيراً وليسَ آخراً لُغَويًّا. وذلك بِعَضْوَنةِ العِلم والثقافةِ العلمية باللغة العربيَّة.

انّ مستقبلَنا العلمي والحضاري والثقافي مَرهونٌ بأن تُصبحَ اللغةُ العربيةُ جُزْءًا من الحياة اليومية في المدرسة والبيت كما في المصنع والجامعة ومَراكز البحوث، وأن تغدوَ الثقافةُ العِلمية جُزءاً من ثقافةِ الصانع والزَّارع والبنَّاءِ والحدَّاد والنجَّار والعامِلِ كُلٍّ في مجالاتِ عمله.

مَقولَتُنا بالعَولَمة العلمية باللغة القوميَّة ليسَتْ بأيِّ حال ضِدَّ تعزيز تعليم اللغة أو اللغات الأجنبية. فالحاجة إلى إتقانِ لُغَةٍ أجنبيةٍ عالميةٍ مُعاصرة هي اليومَ مَطْلَبٌ تربَوي عَوْلَميٌّ أساسي لِكُل مُثَقَّفٍ عَربيٍّ أو غير عربي.

اللغةُ الانكليزية لُغةُ العَولمة اليوم، حاجةٌ ضروريةٌ للعالم الفنلندي والياباني والكُوري والفرنسي والفيتْنامي وغيرِهم. لكنْ لا الكُوريون ولا اليابانيُّون ولا حتى الفيتناميّون طَرحوا مسألةَ اعتِماد اللغةِ الإنكليزية لُغةً لتدريس مواد العلوم ونَشْرِ الثقافةِ العِلْميّةِ في بلادهم.

لدَيْنا أجيالٌ كامِلةٌ من الصُّناع والزُّراع وعامة الناس نجّارينَ وحدّادين وبنَّائينَ وعمالٍ في شتَّى مَجالات أعمالهم الحياتية؛ وهؤلاءِ طَبْعاً عاجزون حاليًّا، وحتّى مُسْتَقْبليًّا، عن التفاعُلِ مع لُغة أجنبيَّة وبالتالي سيَبْقَون بَعيدين عن الانفِتاح على الثقافة العالمية، علميةٍ وغيرِ علميَّة، وعن الإنجازات الحَضارية التِّقنيّة والزراعية والصناعية والصِّحّية والتواصُلية العَولَمية، ما لم تُتَحْ لهُم هذه المُثاقفَةُ باللغة القوميَّة!

وتحضُرني هنا مَقُولةُ الأديب الكبير المَغفور له احمد حسن الزيّات «من المُحال أن تنقُلَ الأمّةَ كلَّها الى العِلم بلُغةٍ أجنبيَّة لكِنْ من المُمكِن أن تنْقُلَ العِلمَ كُلَّه الى الأمة باللغة القوميَّة!

في البلاد العربية طاقاتٌ وقابليّات كامِنةٌ وإمكاناتٌ عَريضةٌ وثَرواتٌ دَفينة هائلة وهَذه يُفْتَرَضُ إطلاقُها وتسخيرُها في خِدْمَة العَرب وارتقاءِ العَرب وقَويم عَولمة العرب. هذه الإمكاناتُ للأسْف تَنْقُصُها العَولَمَةُ العلمية والعَقليةُ العلمية والأساليبُ العِلمية. بصَراحة، الفِكرُ العلميُّ لا يزال مُتخلِّفاً عندنا تَبَعيًّا بالنقل والاقتِباس والافتِقار الى البَحث العلمي الرّصين استِمراراً في سُلوك الدّرْبِ السَّهْل وتعَوُّدِ السَّيْر في فَلَك الآخرين.

مُستورداتُنا من مُنْجَزات العَولَمة العلمية ومُبتَكراتها التقانيّة الحديثة وَفيرةٌ حتى لتكادَ بَعْضُ هذه المُنْجَزات، في مُجتمعاتنا المليئةِ اقتصاديًّا، تفوقُ ما يتواجَد منها في بلدِ المَنْشَأ.

لكِنّ هذه المُنجزاتِ، على وَفْرَتها، لم تَنْقُلْ لنا المعرفةَ المُجَسَّدةَ فيها، ولا أنماطَ البحُوث التطبيقية والمُختبرية التي خَلَّقَتْها، ولا حتى مُجْتَمَعات المَعرفة التي تُوَظِّفُ هذه المُبتكَراتِ والإنجازات إيجابيًّا وبفعَاليةٍ مُجديَةٍ في مختلِفِ القِطاعات الصناعيةِ والزِّراعية والإعمارية والإجتماعية التّنْموية بحيث

لا تَبقى أرضٌ عَربيةٌ غيرَ مزروعة،

ولا مياهٌ عربيةٌ مَهدورة،

ولا يدٌ عربيّةٌ عاطِلةً عن العمل،

ولا مَصْنعٌ يُغنينا عن الاستيراد غيْرَ مَبْنيٍّ،

ولا مَعاهدُ وجامعاتٌ بالجُمْلةِ خاويةَ المُختبرات،

ولا مَراكزُ بُحوثٍ خاليةً من البُحوث والباحِثين.

أمثالُ هذه العَولمَاتِ الإيجابيَّة القويمةِ ما زلنا نَفْتَقِدُها أو نفتقد مُعظَمَها!

بالمُقابلِ غزَتْنا العَولَمَةُ برَوافِدَ سَلْبيَّة انعكست عَولمةَ تَحَلُّلٍ منَ الأخلاقيات التراثية،

عَولمةَ صَرَعاتٍ سُلوكيةٍ تَبْعُد كثيراً أو قليلاً عن أنماط السّلوك المَرْضيَّة،

عولَمَةَ زَلزلتِ الكثيرَ من قِيَمنا ومَفاهيمنا عبر ما تَعْرِضُه القَنواتُ التلفزيونية، الفضائيةُ بخاصة، من بَرامجَ على مَدار السّاعة، تتنافى مع قِيَمنا وتُراثِنا ومُعْتَقداتِنا، وتقاليدِنا الأصاليَّة.

عَولمةً تَستَبْقي أولادَنا، صِغاراً ومُراهقين وبعضَ الكِبار، مُسَمَّرينَ ساعاتٍ طِوالاً يوميًّا أمام الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت) ليسَ شَغَفاً بالمَعلومات، ولا شَوقاً لِمشاهدةِ المُختاراتِ

التثقيفيةِ الجدِّية والتمثيليات الروائعيةِ الخالِدة بل لاستِشْفافِ المَناظرِ المؤذيةِ والموادِّ الإباحيةِ والثقافيّات الخَليعةِ إضافةً إلى تبادُل المُكالمات والرّسائل المشبوهَة وترتيبِ اللقاءَاتِ التي لا يَدْري أحَدٌ كيف تنتهي!

عَولمةً تَنْتَحي إلى ثقافة الأجْنَبي وتَرْسيخ مُرَكَّب النّقص تُجاه كُلِّ ما هو عرَبي حتى إن بعضَ مصانِعنا تَسْتَنكِفُ من كِتابةٍ العَربيّة على مَنْتوجِها الذي تُصَدِّرُه إلى الأسواقِ العربية فتسْتَبْدِلُ بِها لُغَةً أجنبيَّةً أُخرى!

عَولمةً سَلْبيةً عَرْجاء!

الحمدُ لِلّه أنه لا يزالُ لدينا جُموعٌ من مُواطنينَ، لعلَّهم النماذِجُ القُدْوةُ المُجَسِّدةُ لِفضائلِ العَولمة الإيجابيَّة القَويمة ثقافيًا وفكريًّا ولُغَويًّا لَبِناتٌ تَصْلُح لِبناءٍ مُتجدِّد يجمعُ بين تراثنا في أصالَتِه وفضائله الخُلُقيَّة التي تتجَلَّى في عَراقة المَسيحية والإسلام، مع صَقْله وتَطعيمه بالمُنْتَقَيات العَولمية الإيجابية، مُتَجَنِّبينَ مُخْتلِفَ سَلْبيات العَولمةِ العَرْجاء يَعملون بجِدٍّ وصمتٍ في أداء الأمانةِ وتَحمُّل المَسؤولية، ويَرونَ في حماية اللغة العربية والثقافةِ العلمية العربية حِمايةً للأُمة العربية، آنيًا ومُستقبليًا، مِن حَملاتِ الغَزْوِ العَولَميّةِ السّلْبيّةِ الجائرة.